"الوسيط والمُصالح بين المتخالفين"

✠✝✠

[كان أثناسيوس الكبير في جميع الظروف هو الوسيط والمصالح بين المتخالفين، متشبِّهًا بذاك الذي «عمل الصلح بدمه» بين المتناقضات]

القديس غريغوريوس النزينزي،
عظة ٢١ على أثناسيوس

أشرنا في العدد الماضي إلى ثلاثة مواقف في سيرة القديس أثناسيوس تجلَّى فيها صدق هذا القول الذي ينعت القديس أثناسيوس الرسولي بأنه كان [في كل الظروف هو الوسيط والمصالح بين المتخالفين]. وشرحنا بنوع من التفصيل أول هذه المواقف وهو ما فعل إزاء الخلاف الناشئ بين الشرق والغرب عن المعاني المختلفة لكلمة هيبوستاسيس. وفي العدد الحالي سنُقدِّم ثاني هذه المواقف وهو كيف استطاع بسعة صدره واتساع أفقه أن يصالح الجناح المعتدل من أنصاف الأريوسيين، تاركين للعدد القادم إن شاء الله تقديم ثالث هذه المواقف وهو كيف استطاع أن يصالح الأحزاب المتضاربة في كنيسة أنطاكية.

ثانيًا – موقف القديس أثناسيوس من المعتدلين من أنصاف الأريوسيين

لقد قضى القديس أثناسيوس نفيه الثالث (٣٥٦-٣٦٢م) مختفيًا بين رهبان براري مصر، متنقلاً من مغارة راهب إلى مغارة راهب آخر، حتى لا تدري السلطات أين يكون. ولم يكن عاطلاً في هذه الفترة بل كان متابعًا بكل اهتمام – عن طريق الأخبار التي يرسلها له أصدقاؤه – كل ما كان يجري في الكنيسة العامة. وقد كانت فترة عصيبة توالت فيها المجامع تلو المجامع، وقد سجَّل القديس أثناسيوس تاريخ هذه المجامع المتتالية مع تعليقاته القيِّمة المطوَّلة على كل ما كان يجري، في كتابه "عن المجامع" De synodis. وكانت المواجهة الشديدة في معظم هذه المجامع تتم بين الأريوسيين المتطرفين وبين أنصاف الأريوسيين، إذ كان معظم قادة الأساقفة الأرثوذكس في هذه الفترة في النفي مثل القديس أثناسيوس.

ومن بين أنصاف الأريوسيين لمح القديس أثناسيوس جناحًا معتدلًا يتقدمه باسيليوس أسقف أنقرة (وهو غير باسيليوس الكبير). هؤلاء كانوا قريبين من الإيمان النيقاوي ولا يختلفون عنه إلَّا في عدم قبولهم اصطلاح الأوموؤوسيوس. وهذا ما يقوله عنهم القديس أثناسيوس:

[أمَّا الذين يقبلون كل مقررات مجمع نيقية ويتشككون فقط في عبارة "الأوموؤوسيوس" فلا ينبغي أن يُعاملوا معاملة الأعداء، ولا نقصد هنا أن نهاجمهم بوصفهم مصابين بالأريوسية، ولا نحن نعتبرهم مقاومين لتقليد الآباء، ولكن نناقش الأمر معهم كإخوة مع إخوة، لأنهم يقصدون ما نقصده نحن، وليس الخلاف بيننا إلَّا حول اللفظ فقط، فإنهم يُقرُّون بأن الابن هو من جوهر الآب وليس من كيان آخر، وأنه ليس مخلوقًا ولا مصنوعًا... ومن أمثال هؤلاء باسيليوس الذي كتب من أنقرة بخصوص الإيمان](١).

نلاحظ أنَّ القديس أثناسيوس لا يكتفي فقط بأن يدعو هؤلاء **إخوةً** "نناقش الأمر معهم **كإخوة مع إخوة**" بل يعود ويدعوهم "**أحباء**":

[إن المعنى الذي يقصده هؤلاء الأحباء ليس غريبًا ولا هو بعيد عن معنى التساوي في الجوهر](٢)

ولمَّا علم أن أهم ما يعطِّلهم عن قبول اصطلاح الأوموؤوسيوس هو أن نفس هذا الاصطلاح رُفض في القرن السابق لهم من السبعين أسقفًا الذين حكموا على بولس الساموساطي سنة ٢٦٩م، ابتدأ أثناسيوس بكل صبر وطول أناة يناقش الأمر معهم، مبيِّنًا أن الكلمة الواحدة يمكن أن يختلف معناها بحسب السياق الذي تُستعمل فيه وبحسب الهدف من استعمالها. فكل من المجمعَين – الذي حكم على الساموساطي والذي حكم على أريوس – كان محقًّا فيما فعل، الأول في رفضه لكلمة الأوموؤوسيوس والثاني في تمسكه بها:

[فبالتأكيد لا يليق أن نعتبر أحد المجمعين ضد الآخر، لأن جميعهم كانوا آباء قديسين، وليس من الصواب أن نعتبر هؤلاء تكلموا حسنًا وأولئك تكلموا رديئًا،

---

(١) القديس أثناسيوس، عن المجامع ٤١.

(٢) المرجع السابق ٤٣.

لأن جميعهم رقدوا في المسيح، ولا أن نكون مماحكين فنُفاضل بين المجمعين من جهة العدد، وكأن مجمع الثلاث مائة يحجب أهمية مجمع السبعين، ولا أن نفاضل بينهما من جهة الزمن، وكأن الأقدم يُبطل الأحدث، لأن جميعهم كانوا آباء قديسين، كما قلت](٣).

ولكي يُدعِّم رأيه في أن هؤلاء وأولئك كانوا مُحقِّين فيما فعلوا يعطي مثالاً لذلك بما قاله بولس الرسول عن الناموس في مناسبات مختلفة:

[فليس من التقوى أن نلوم هؤلاء ولا أولئك لأن الجميع كانوا «سفراء عن المسيح»، والجميع كانت لهم غيرة ضد الهرطقات، فالأولون حكموا على الساموساطي، والآخرون حكموا على هرطقة أريوس. والجميع تصرفوا كما يليق بالموقف الذي كان أمامهم. كما أن بولس الرسول المبارك لمَّا كتب لأهل رومية قال: «الناموس روحي ... الناموس مقدَّس والوصية مقدَّسة وعادلة وصالحة» (رو٧: ١٤و١٢) وبعد ذلك بقليل: «ما كان الناموس عاجزًا عنه فيما كان ضعيفًا بالجسد» (رو٨: ٣)، وأمَّا للعبرانيين: «الناموس لم يُكمِّل شيئًا» (عب٧: ١٩)، ولأهل غلاطية «ليس أحد يتبرَّر بالناموس» (غل٣: ١١)، ولكن لتيموثاؤس «الناموس صالح إن كان أحد يستعمله ناموسيًّا» (١تي١: ٨)، ولن يتَّهم أحد هذا القديس بأنه يناقض نفسه أو يُغيِّر كلامه، بل بالحري نعجب كيف بلياقة يكتب لكل منهم بحسب ما ينفعه، فلأهل رومية ليُعلِّمهم أن يتحوَّلوا من الحرف للروح، وأمَّا للعبرانيين وأهل غلاطية لكي لا يضعوا رجاءهم في الناموس بل في الرب الذي أعطى الناموس؛ هكذا إن كان آباء المجمعَين قد ذكروا الأوموؤوسيوس بطريقة مختلفة لا يجب أن نحيد عنهم بل بالحري أن نبحث بأي معنى استعملها كل منهما، وهذا سيُظهر لنا كيف أنهما متفقان. لأن الذين حكموا على الساموساطي أخذوا كلمة الأوموؤوسيوس بمعنى جسدي(٤)، لأن

---

(٣) المرجع السابق ٤٣.

(٤) كان بولس الساموساطي يدَّعي أن المسيح لم يصر إلهًا إلَّا عند المعمودية لمَّا حلَّ عليه الروح القدس، وقد تحدَّى الأساقفة الذين حكموا عليه قائلاً: إن لم توافقوني في رأيي هذا فأنتم تعتبرون هذا الإنسان يسوع مساويًا لله في الجوهر، وقد رفض الأساقفة ذلك الادعاء أي رفضوا تطبيق كلمة الأوموؤوسيوس على ناسوت الرب، أي رفضوها «بالمعنى الجسدي»، كما يقول القديس أثناسيوس.

بولس الساموساطي جادل قائلاً "لو لم يكن المسيح إنسانًا وقد صار فيما بعد إلهًا، يكون بالضرورة (هذا الإنسان) مساويًا للآب في الجوهر!"][٥].

إننا نعجب لصبر القديس أثناسيوس وسعة صدره وكيف أنه يتعامل مع هؤلاء أنصاف الأريوسيين كما يقول «بهدوء ومحبة متعاطفة»[٦] ويتدرَّج معهم داعيًا إياهم "أحباء" ليُقنعهم قليلاً قليلاً بأن كلمة أوموؤوسيوس ليس بها أي شيء مما يعترضون عليه. ويُضيف على ما ذكره عن بولس الرسول وموقفه من الناموس أمثلةً أخرى من أقوال إغناطيوس الأنطاكي وديونيسيوس السكندري وسميه الروماني، ليُبيِّن أن جميع هؤلاء القديسين استعملوا بعض الكلمات مرةً بالقبول ونفس الكلمات مرةً أخرى بالرفض بحسب السياق الواردة فيه، وما كانوا أسرى لمنطوق الكلمات بل كانوا يتفهمون المعاني المختلفة التي يمكن أن تحملها نفس الكلمة بحسب السياق الواردة فيه. ويفرد لشرح ذلك فصولاً متعددة (رسالة "المجامع" الفصول من ٤١ إلى ٤٨).

وكان تعليق الأب متى المسكين على سعة صدر القديس أثناسيوس في هذا الموقف:

[في رسالة "المجامع" De synodis **ارتفع أثناسيوس فوق نفسه!! وكانت النتيجة أن استجاب الله في لحظة وأوقف هذا الشغب، فالمحبة التي ترجو كل شيء لا بد أن تتبرر في كل ما تعمله وتتزكَّى. وقد حدث أن ليس معظم النصف أريوسيين فحسب (٥٩ أسقفًا مرة واحدة انضموا إلى شركة أثناسيوس سنة ٣٦٥م) قبلوا الأوموؤوسيوس مرة أخرى، بل وآخرون كثيرون حملوا لواء المناداة برفع قضية مقررات مجمع نيقية إلى منتهى انتصارها في الشرق]**[٧].

وأما القديس جيروم، فعلَّق على حسن تصرُّف القديس أثناسيوس مع أنصاف الأريوسيين قائلاً:

[إنه بأسلوبه السلامي الحكيم انتشل العالم كله من فك الشيطان][٨]. (يتبع)

---

(٥) القديس أثناسيوس، في المجامع: ٤٥.

(٦) في المجامع: ٤٨ calmly and with a kindly sympathy

(٧) الأب متى المسكين، القديس أثناسيوس الرسولي، ص ٢٦٨ من طبعة ١٩٨١

(٨) القديس جيروم في كتابه ضد لوسيفر *Adversus Lucifer*, 20